

الصورة ونظرية الاندماج

إيكوساني عبد القادر

جامعة وهران 1 - أحمد بن بلة -

الأنترنت:

إذا كانت أغلب النظريات الإعلامية قد استندت إلى جملة من الأركان الأساسية في توصيف ماهية الإعلام من حيث الوظيفة والأهداف، والتي يمكن تلخيصها بمثلث (ماكلوهان) القائم على (الإخبار، الترفيه، الثقيف)، فالأحرى بنا الآن أن نتجه إلى إضافة ركن رابع إلى هذا المثلث بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وهو (التشويه) ليتحول المثلث الجميل إلى مربع حاد الزوايا لا يثير فينا أي بعد جمالي أو حسّي كما لمثلثنا القديم الذي أبدعته واحدة من أرقى الحضارات الإنسانية.

وإذا كان هذا البعد المطرود سابقاً والمرحب به حالياً من قبل أجهزة الغرب الإعلامية قد غاب طويلاً عن المباشرة في الاستخدام، فإن الأحداث والوقائع السابقة تكشف لنا عن توظيفه المباشر في المنتج الإعلامي الغربي، "من خلال عشرات الاستخدامات المدروسة بعناية والتي ينبغي الانتباه إليها وتحليلها ووضعها بين يدي الإنسان الملتزم ليوعي حجم الخطر الذي يحيطه..".¹ ولكي تأخذ دراستنا الحالية شكلها العلمي المبسّط، سنقسمها إلى عدة محاور نحاول تعزيزها بالأمثلة والشواهد التي يمكن للقارئ الرجوع إليها مشاهدة أو قراءة.

تشير الإحصائيات الحديثة إلى أن أكثر من 100 مليون شخص استخدموا الأنترنت في عام 2000 وأن هذا الرقم ارتفع سبعة أضعاف، وبلغ 700 مليون شخص في نهاية العام الماضي، وهذا يعني أن كل هؤلاء قد تمكنوا من الاتصال مع العالم الخارجي بعد أن ألغوا المسافات وعبروا الحدود المقررة لبلداتهم وشاركوا في إبداء آرائهم دون تدخل من قبل حكوماتهم. "وبالتالي فقد ساهم الأنترنت في عملية إدماج ثقافي عبر ما يثته من نماذج محددة مستخدماً رسائل ولغة ورموزاً موحّدة. وإذا كان هذا الأمر يثير الدهشة والإعجاب؛ لفضاء الحرية التي سمح الأنترنت بها، فإن ما يخبئه يكاد يكون مرعباً، ولا بد من الانتباه إليه سريعاً"³، فالمتتبع لمنجزات هذه التقنية يعرف جيداً أن اللغة المتسيدة فيها هي اللغة الإنجليزية وبالتالي أصبحت هي اللغة الأم الآن وهي لغة الثقافة، ولغة السوق (الاقتصاد) ولغة المنتصر الذي يفرض ما يريد فرضه دون محاسب، وهي لغة العلم وقاعات الدرس، ولغة الإعلام المرئي والمسموع والمقروء، وبالتالي فكل ذلك يقترب من نظرية (الحتمية اللغوية) للعالم الألماني (ولهام هبولدت) الذي يقول: "إن الناس هم تبع لتفكيرهم وإحساسهم ومشاعرهم ونظرتهم للكون، وللعادات التي اكتسبوها من خلال ممارساتهم للغة"⁴ وإن هذه التبعية في الأفكار والأحاسيس والمشاعر ستجعل من تأثيرات الأنترنت أكثر مما هو معروف عنه الآن من خدمات لا تكاد تحصى، ربما

ستنعكس سلباً على مخططيته ومن يقفون وراء توظيفه لمآرهم .

وهذا ما يشير إليه (جيدنز) في كتابه (عالم منفلت)؛ إذ يرصد ظاهرة الاستعمار المعاكس، ويقصد بها تأثير الدول غير الغربية في الغرب، ويستشهد ببعض الأمثلة على ذلك، مثل (أسبنة) لوس أنجلوس، أي سيطرة الأسباب على هذه المدينة، ونشوء قطاع تكنولوجيا متقدم متوجه نحو السوق العالمية في الهند، أو بيع البرامج التلفزيونية المنتجة في البرازيل للبرتغال وتأثيرات تصنيع واستخدام الكمبيوتر في بلدان شرق آسيا⁵ .

وإذا تفحصنا الرسائل التي ييئها الانترنت نجدها تمتلك، إلى جانب المعرفة والمعلوماتية، جانباً آخر يكاد يكون أداة فعّالة للتحفيز على الانحراف السلوكي، وخاصة في البرامج الفضائية والصور الإباحية التي ترسل على شكل رسائل إلى قطاع واسع من المشتركين في برامج الانترنت، وتقدم لهم العروض المجانية في المشاركة أو المشاهدة في أقل التقديرات؛ وهذا ما دفع الكثير من الآباء للاعتراض على الاستخدام المفتوح للانترنت دون محددات أخلاقية أو قوانين يمكن الرجوع إليها في حالة الإخلال في الشروط الأخلاقية لمستخدمي الانترنت.

السينما

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ظهرت العديد من الدراسات التي حاولت الوقوف على ما حدث وتحليله، وقد شملت الكثير من الجوانب، ولعل أهمها تلك التي تتعلق بالأدب والسينما وعلاقتهما بأحداث نيويورك وواشنطن؛ فقد مزجت هذه الدراسات بين ما قدمته السينما الأمريكية منذ السبعينات وحتى الآن من أفلام

خيالية حول العنف والجريمة والإرهاب، معتمدةً على روايات وقصص شهيرة، وبين الأحداث الواقعية التي جرت في الحادي عشر من سبتمبر، على اعتبار أن النص الأدبي (رواية، قصة) يمكنه (أن يدمج متلقيه في تركيبة ملامحه) كما تقول (جوليا كرستيفا) في كتابها (علم النص)، خاصة وأن السينما يمكن أن تلعب دوراً محورياً في توجيه سلوك الأفراد، وهي وسيلة فعالة لتوجيه أهدافهم واتجاهاتهم داخل المجتمع؛ وذلك لعدة أسباب يلخصها (روسك) بـ:

1) يضع الناس أنفسهم في موضع الأبطال، ويتقبلون بطريقة لا شعورية الاتجاهات التي يعبرون عنها، والأدوار التي يقومون بها.

2) الأفراد الذين يعانون من المشاكل المختلفة يتقبلون بطريقة لا شعورية، أو شعورية، الحلول التي تقدمها الأفلام كحلول لمشكلاتهم الخاصة⁶.

ففي عام 1970 صدرت رواية (المزاح) للكاتب الأمريكي (أيد ماكبين) تتحدث عن عملية سطو على بنك كبير، يخطط لها بطل الرواية من خلال خداع رجال الشرطة بوجود عمليات إرهابية في أماكن عامة تصيب الناس بالفرح؛ مما يفقد رجال الشرطة قدرتهم على توفير الأمن للبنك، وتتم الانفجارات بواسطة قنابل موقوتة، ورغم اختلاف أسلوب التنفيذ إلا أن الهدف واحد يشبه كثيراً ما جرى في واشنطن ونيويورك. ويعود الكاتب بعد سنوات ليقدّم رواية جديدة حملت عنوان (كلاب الصيد) تتناول أساليب جديدة في تنفيذ العمليات الإرهابية لا يستطيع الكاتب السيطرة على مجرياتها إلا بمحض الصدفة .

" 1-الإرجاء: بمعنى أن التأثير على الجمهور لا يبدو مباشرة بعد التلقي، بل لابد من مضي زمن يسمح بتراكمها واختمارها وفقاً لقوانين نفسية محددة.

2-الكمون: حيث تكمن التأثيرات التي تعرض لها الجمهور، وهي ليست تأثيرات مادية ظاهرة يمكن رصدها بسهولة، بل تأثيرات تعبر عن نفسها في مواقف تستثيرها للظهور في شكل استجابات"9.

وبالتالي تدور الأسئلة حول مدى الاستفادة التي قدمت للإرهابيين في التخطيط والتنفيذ لمشاريعهم، وهو أمر ليس ببعيد عن المجال السينمائي؛ فقد اعتبر رجال المافيا الإيطالية الكاتب (ماريو بوزو) مؤلف رواية (العراب) التي تحولت إلى فلمين أخرجهما للسينما المخرج الأمريكي الشهير (كوبولا)، أن الكاتب هو أحد رجال المافيا السابقين، وأنه كشف الكثير من أسرار المافيا للناس والشرطة في آن واحد، وذلك للدقة العالية التي وصف فيها الكاتب أجواء العمل داخل هذه العصابات الإرهابية. ويبدو أن السينما الأمريكية وقعت في شر أعمالها بعد ارتكازها على مبدأ العدو الوهمي الذي ينبغي الانتصار عليه؛ فأحياناً يأخذ شكل النظام السوفييتي السابق، وأحياناً يأخذ شكل كائنات غريبة تأتي من الكواكب الأخرى، وثالثاً أناساً إرهابيين لا هم سوى التفكير بالعمليات الإرهابية، وهم على الأغلب عرب أو مسلمون، كما حدث في فيلم (الحصار) المنتج عام 1998 الذي يتحدث عن مجموعة من الإرهابيين العرب تحاول تفجير مكتب التحقيقات الفدرالي. وقد جوبه الفلم آنذاك بجملة من الانتقادات من القوى المعتدلة داخل أمريكا، وآخر هذه السلسلة من الأفلام العنصرية هو الفيلم الذي عرضته دور السينما الأمريكية (النسر الأسود) للمخرج (ريدلي

أما رواية الكاتب (ستيفن كنف) الصادرة في عام 1982 والتي عنوانها (الإنسان الهارب) فتتحدث عن لعبة نظمها محطة تلفزيونية تتركز على ملاحقة واصطياد المتسابقين وقتلهم، "وقد تحولت بعد صدورها إلى فلم سينمائي قام ببطولته الممثل الأمريكي (أرنولد شوارزنجر) وتنتهي الرواية بخلاف الفلم إلى نهاية مأساوية حيث يقوم البطل بتفجير الطائرة التي يستقلها في مبنى التلفزيون الذي ينظم اللعبة"8 .

أما الكاتب الأمريكي (توماس كيلنسي) فقد قدم رواية بعنوان (واجب الشرف) في عام 1994 تتحدث عن طائرة بوينغ 747 يقودها طيار ياباني انتحاري يقرر الانتقام من أمريكا لقيامها بإلقاء القنبلة الذرية على مدينتي ناكازاكي وهيروشيما في العام 1945، وقتلها الآلاف من اليابانيين، وتفادياً من الوقوع في الأسر يتجه هذا الطيار إلى مبنى (الكابيتول)، أي الكونغرس الأمريكي، ويقوم بتفجيره وقتل من فيه أثناء اجتماع الرئيس الأمريكي بأعضاء الكونغرس وإلقائه الخطاب أمامهم .

هذا فضلاً عن مئات الأفلام التي تنتج سنوياً والتي تتناول في معظمها العنف كمادة أساسية لها؛ مما أثار العديد من التساؤلات حول المدى الذي لعبته هذه الأفلام والروايات في التحريض على العنف والإرهاب ومدى الصديق الذي انطوت عليه مقولة (جوليا كرسيفا) آنفة الذكر والخاصة بالاندماج الحاصل بين أحداث النص أو الفلم وبين المشاهدين؛ أي مدى أثر هذا التراكم من المشاهدات على المتلقي؛ فالتراكم كما هو معروف يعمل على صياغة الشخصية بمواصفات معينة تحدد مضمين المنتج السينمائي، والفرد عندما يتلقى الرسالة من السينما بشكل ما تحكمه خاصيتان هما:

التلفزيون:

لم يقتصر الأمر على السينما في بثّ الإعلام الموجّه والمدروس بعناية إلى الآخرين، بل أدى التلفزيون دوراً أكبر بكثير، في تجسيد مبادئ العنف والإرهاب، وبالذات بعد الانتشار الهائل للفضائيات، وسيطرة الإعلام الغربي على أغلب هذه القنوات الفضائية مباشرة أو عن طريق كثرة الإنتاج للأفلام والمسلسلات والبرامج الإخبارية، حتى أنك تدهش عندما تشاهد خبراً أو ريبورتاجاً أو صورة لم يكن للغرب الإعلامي يد فيه!! ولا يكاد يخلو البرنامج التلفزيوني العام من مسلسل أو فلم تم إنتاجه في استوديوهات هوليوود، وقد تضخمت حاجة الفضائيات التلفزيونية للمواد الإخبارية والدرامية والمنوعة، أكثر من التلفزيونات المحلية، وخاصة في بلدان العالم الثالث، ومن فيه من العالمين العربي والإسلامي، فالفضائيات العربية تجاوزت المئات منها 7 قنوات غير حكومية: "يملكها أصحاب المال والأعمال العرب مثل قنوات الجزيرة و ART ORBIT , ANN, MBC ويقع مقرها خارج الوطن العربي، وتخضع لقوانين الدول التي تبث منها: بريطانيا، ألمانيا"¹¹.

وهذه القنوات تبث على مدار الساعة وتستهلك عشرات البرامج المتنوعة لكي تغطي مساحة البث لديها، وإن معظم هذه القنوات لا يعتمد على إنتاج محلي لفقره أولاً، ولعدم كفايته ثانياً، فضلاً عن مواصفات الجودة الإنتاجية التي قطع الغرب فيها شوطاً طويلاً؛ وهنا يكمن الخطر الذي تحمله برامج هذه القنوات إلى داخل البيوت كضيف مرحب به على الدوام. وقد انتبه الغرب لخطورة الفضائيات وما تحدثه من آثار في الرأي العام سلباً أو إيجاباً، وحاول أن يمارس ضغطاً قوياً على قناة الجزيرة مع

سكوت) مخرج فلم (المصارع)، والذي حاز على أغلب جوائز الأوسكار في العام الماضي. والفلم يدور حول مهمة عسكرية فاشلة لمجموعة الكوماندوس الأمريكيين الذين يقودون طائرة هليكوبتر من نوع (بلاك هاوك) ويتجهون إلى منطقة معادية لهم في العاصمة الصومالية مقديشو، للقبض على مساعدين عسكريين للجنرال (عيديد) الذي كان يمثل العدو رقم واحد للأمريكيين في ذلك الوقت، وتنتهي المهمة بقتل 18 أمريكياً مقابل 1000 صومالي، في جو مليء بالقنابل والانفجارات والسيبرمانيات 10 .

ويبدو لنا من خلال ما تقدم أننا أمام مجموعة من الاستنتاجات منها:

1- أن مبدأ ترسيخ العنف في الأدب والفن في أمريكا، يؤدي إلى شيوع استخدام السلوك العدواني لدى الكثير ممن يتعاطون هذين الموضوعين، كما تشير معظم الدراسات التي ظهرت بعد أحداث سبتمبر.

2- أن موضوع العدو الوهمي الذي تبحث عنه أميركا في أدبها وأفلامها قد تحقق لها على أرض الواقع، وبطريق تقترب من خلاله كثيراً من وصفها له في رواياتها وأفلامها.

3- مازال النهج العنصري الذي يحمل الكثير من الإساءة للعرب والمسلمين مرتكزاً أساسياً في أفلام هوليوود دون مراعاة لمشاعر الآخرين وخصوصياتهم.

4- العمل على تركيز مبدأ التشويه كركن أساسي في العملية الإعلامية واستخدامه لإغراض التقليل من شأن الأديان والأجناس والحضارات دون وازع أخلاقي يذكر.

المشاهد العربي والمسلم، ولبساً واضحاً في معارف الغربي عنهما في ذات الوقت.

4- يمكن أن يسهم الإعلام في توطيد الأمن لدى الناس، ونبد العنف وإدانتها، من خلال التقليل من مظاهر العنف والتركيز على ما يدفع الناس لعمل الخير، وإظهار الصورة الحقيقية للآخرين دون المساس بحرياتهم وخصوصياتهم، وترك الحرية للمشاهدين في الحكم الموضوعي.

5- ينبغي الانتباه إلى ما تحمله القنوات الإعلامية المختلفة من مصادر للخطر بين ثنائياها، وهذا لا يعني الانغلاق عن هذه القنوات، بل العكس هو الصحيح.

الهوامش:

(1) محمد نور الدين أفاية: السينما.. الكتابة والهوية، (مجلة الوحدة) أكتوبر/ نوفمبر، الرباط، 1987 ص27.

(2) عبد العزيز بلقزيز: العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، مارس 1998، ص95.

(3) حسن السوداني: أثر العرض البصري القائم على خصائص الصورة التعليمية التلفزيونية على طلبة كلية الفنون الجميلة، جامعة بغداد 1996، رسالة دكتوراه غير منشورة، ص88.

(4) د. أحمد درويش: تحديات الهوية العربية، مجلة المسلم المعاصر، العدد 98 لسنة 2000.

(5) انظر. انتوني جيدنز: عالم منفلت، ت: محمد محي الدين، دار ميريت للنشر والمعلومات، سنة 2001، ص2،

بدايات الحملة الأمريكية على أفغانستان، وملاحقة مراسليها، واتهامها لهم بالتعاون مع الإرهابيين. ومن الأمثلة أيضاً أن الكثير من تلفزيونات الغرب لم تعرض مشهد قتل الجنود الصهاينة للطفل محمد الدرة وهو محتمي خلف والده، خشية تعاطف مشاهديها مع الفلسطينيين، خاصة أن مشهد القتل هذا أحدث ضجة واسعة في العالمين العربي والإسلامي، وخرجت الجماهير غاضبة تطالب أنظمتها بتوجيه العقوبة الصارمة إلى مرتكبي هذه الجريمة البشعة، وكثيرة هي الأمثلة التي يمكن ذكرها في كيفية الإساءة للعرب والمسلمين في التلفزيونات الغربية وبشتى الطرق والأساليب، معتمدة على ما يجذبه المشاهد الغربي من أغاني وأفلام ومسلسلات، وتضمينها ما يمكن أن يظهر المسلم كشخص هامشي يعيش بطريقة متخلفة في بلده أو في البلدان الغربية التي ينتقل للعيش داخلها.

استنتاجات:

1- يلعب الإعلام المرئي والمقروء والمسموع دوراً كبيراً في عملية إدماج متعاطيه، وخاصة المرئي منه؛ لأن الصورة تدرك ولا تفكر؛ مما يسهل وصولها للعقل دون عناء.

2- إن العنف الذي تبثه الأفلام السينمائية وما يتسرب منها داخل الفضائيات، يسهم إلى حد بعيد في انحراف السلوك لدى المشاهدين من المرضى والمراهقين، ويمكن أن يظهر على شكل استجابات لدى الكثير منهم.

3- لقد ساهم الإعلام الغربي في إضفاء الكثير من التشويه على صورة العربي والمسلم عبر منتوجه الإعلامي، مولداً بذلك موجة من العداء والكراهية من قبل

(6). سمير نعيم أحمد: علم الاجتماع القانوني، دار المعارف، القاهرة- د.ت، ص13

(7). صفاء الجنابي: الأدب والسينما في أمريكا.. مخيلة خضبة وأعداء وهميون، مجلة الراصد الإماراتية، العدد50، لسنة 2001. ص122.

(8). قدري حنفي: ملامح البطل في الأفلام المصرية في (هاشم النحاس محرراً) الإنسان المصري على الشاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، . 1986. ص18

(9). لؤي عبد الإله: فلم عنصري في هوليوود يمهد لحروب عالمية جديدة، مجلة الزمان الجديد، العدد26، فبراير2002. ص66

(10). انظر. نصر الدين لعياضي: خطاب التلفزيون والخطاب عن التلفزيون في الفضاء الثقافي العربي، مجلة الراصد، العدد54، فبراير2002. ص45.